البك والباشا ـ ٢ ـ

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال : جاء يوماً إلى زيارة الباشا رجلٌ دخل عليَّ متهلِّلاً ، مُشْرِقَ الوجه ، كأنَّه مُضَاءٌ من داخلِه بشمعةٍ . . . ويترنَّح عِطْفاه ، كأنَّما تهزُّه أسرارُ عظَمتِه ؛ ويمشي متخلِّعاً[1] كالمرأة الجميلة التي أثقلها لحمُها ، وأثقلتها المعاني الكثيرةُ من أعين النَّاظرينَ إليها ، وعلى شفتيه خَيالٌ من فكرةِ هؤلاء الكبراء المغرورين ؛ الَّذين لا يأمرُ أحدُهم رجلاً صغيراً إلا ليُعْلِمَهُ أنَّه هو كبير ، فيكونُ في الأمر شيئان : الأمرُ ، واللُّؤم ؛ وأقبل عليَّ في هيئةٍ شامخةٍ ، لو نطَقت ؛ لقالت : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى : ١] سبِّح اللهَ ؛ الذي خلق في الأسَدِ شعرةً جبَّارة ، خرج منها الأسَدُ كلُّه . . .

سُبحانَ الله ! ولا إله إلا الله ! هذا (فلان باشا) الَّذي قرأتُ في الصُّحف أمس : أنَّهم أنعموا عليه برتبة الباشوية ؛ خلقه الله من تراب ، وحوَّلت الرُّتبةُ هذا التُّرابَ الذي فيه إلى ذهبٍ خالصٍ . . . ينظرُ إليَّ وبرغْمِه أن تَقِفَ عيناه عليَّ ، وعلى الحائط ؛ ولا تجدُ نفسُه المزهوَّةُ سبيلاً إلى التَّعبير عن الرُّتبة إلا هذا الازدراءَ المنبعِث من شخصه العظيم لمن لم يكن كشخصه . ما بين أمسِ واليومِ زاد هذه الزِّيادةَ الآدميَّة ، أو كأنَّما كانت صورتُه خطوطاً فقط ، فوُضِعَتْ فيها الألوان . . .

(باشا) ! هذه الباء ، وهذه الألفُ ، وهذه الشينُ الممدودةُ ليست حروفاً خارجةً من الأبجدية العامَّة ؛ فإنَّ الأبجدية قد تجعلُ الباء في بليد مثلاً ، والألفَ في أبله ، والشِّينَ الممدودةَ في شاهد زُور مثلاً مثلاً . . . بل تلك حروفٌ من حروفِ الدَّولة ، منتزعةٌ من قوةٍ قادرةٍ على أن تجعلَ لحياة صاحبها من الشَّكل ما يُسْبِغه الفنُّ على الحجَر من شكل تمثالٍ يُنْصَبُ للتَّعظيم .

قال : وكنت أعرفُ هذا الرَّجلَ ، وهو رجلٌ أميٌّ لا يُحسن إلا كتابةَ اسمهِ كما تكتبُ الدَّجاجةُ في الأرض . . . فكانت الرُّتبةُ عليه كإطلاق لفظ الحديقة على صخرةٍ من الصُّخور الصَّلْدة ؛ وهذا ممَّا يحتملُه المجاز بِعَلاقة ما ؛ ولكنَّ الذي

---

(١) « متخلعاً » : تخلَّع في مشيه : هزَّ منكبيه ويديه متبختراً .

لا يَسُوغُ في المجاز ، ولا في مبالغات الاستعارة ، ولا في خُرافات المستحيل ، أن تزعمَ الصَّخرةُ للنَّاس : أنَّ لفظَ الحديقة ؛ الذي أطلق عليها قد أنبتَ فيها أشجارَ الحديقة . . .

* * *

قال صاحبُ السِّرِّ : واستأذنتُ له على الباشا ، فسهَّل له الإذنَ ، وقال : هذا رجل أصبح كالورقة المبصومةِ بخاتَم الدَّولة ، فلتكنْ ما هي كائنةٌ ، فإنَّ لها اعتبارَها . ثمَّ تلقَّاه تلقِّيَ الهازلِ المتهكِّم ، وقال له : أهنئك بالنَّحْوِيِّ . . . مُبَارَكون يا باشا ! . . . وأقبل عليه ، وبَسَطَ له وجهَه .

وكان في الباشا دُعابَةٌ ظريفةٌ يُعرف بها ، وهو كثيرُ النَّوادر ، والمُلَح ، وله خَصِيصةٌ عجيبةٌ ، فيكونُ بين يديه كُدْسٌ من الأوراق التي تُعرض عليه ينظرُ فيها ، ويقرؤها ، ويتدبَّرها ، وهو في ذلك يستمعُ إلى محدِّثه ، ويُراجعه ، ويردُّ عليه ، فيُصرِّفُ النَّاسَ ، والأوراقَ في وقتٍ واحد ، ويستعملُ ناحيتين من فكره استعمالاً واحداً لا يُخِلُّ بالإصابة في شيءٍ من هذه ، ولا من تلك .

ثمَّ قال للباشا الحديثِ ، وعينُه إلى ما بين يديه : هذه أوراقُ سرقة ثورٍ عظيمٍ فكم يساوي الثَّورُ العظيم الآن . . . ؟

قال صاحبنا الذَّكيُّ الفَطِن : إذا كان من الثِّيران ؛ الَّتي تُعرضُ في المعارض ، وتنال المداليات الذَّهبية ؛ فقد يَبْعُدُ سعرُه ، ويُغَالَى به .

قال الباشا : نعم . . . نعم ، إنَّ من الثِّيرانِ ثيراناً يُنْعَمُ عليها بالأوسمة ، ولكن هذا الثَّور الذي سألتك عنه يا باشا ! هو ثورُ محراث ، لا ثورُ معرض . . .

قال الآخر : إذا كان ثورَ محراثٍ ؛ مثلُه كثيرٌ ، فلا يكون ثوراً عظيماً ، كما قلتَ ، وليست له إلا قيمةُ مثله .

قال الباشا : أراني أخطأت ، ولعن الله العَجَلَة ، فهذه أوراق سرقة حمار !

* * *

قال صاحبُ السِّرِّ : وانصرفتُ عنهما بأوراقي ، وقد رأيتُ يدَ الباشا مملوءةً لصاحبنا بتحيَّات كلُّها صفَعَات ؛ فلم يكن إلا يسيرٌ حتَّى خرج مبتهجاً يَميدُ السُّرورُ

بعِطْفيه . ثُمَّ دعاني الباشا ، ودفع إليَّ بِطاقةً بالحاجة الَّتي جاء فيها الرَّجل ، ثُمَّ قال :

يا ليت لنا في ألقاب الدَّولة لقبَ : (رحمه الله) . . . يُنْعَم به على مثل هذا ! أتدري يا بنيَّ ! أنَّ هذه الرُّتبَ ، وهذه الألقابَ لم تكن في القديم إلا كوضع علامةِ الشَّرِّ على أهل الشَّرِّ ؛ ليهابَهُمُ النَّاسُ ، حتَّى كأنَّما يُكْتَب على أحدهم من لقب بك ، أو باشا : مُلْحَق بالدَّولة .

وكان الشَّعبُ أميّاً جاهلاً لا يستطيع الإدراكَ ، ولا يُحسن التَّمييز ، فكانت الألقابُ كالقوانين الشَّخصية الموضوعةِ في صيغةٍ موجَزةٍ ، مفهومةٍ متعيِّنةِ الدَّلالة ، وكان كلُّ من يحملُ لقباً من الحكومة يستطيع أن يقولَ للنَّاس : لقد وضعَتِ الحكومةُ كلمةَ الأمر في شفتيَّ .

وكأن اللقبَ إعلانٌ من الحكومة المستبِدَّة لشَعبها الجاهل : إنَّ هذا البك والباشا ممَّن يحقُّ له أن يُحترم .

من الهزل أن يُشترى اسمُ النَّصر الحربيِّ أو يُوهَبَ ، أو يُعار ؛ وأقبحُ منه في باب الهزل أن يُنعم على مثل هذا الأميِّ بلقب باشا ، وأنا أعرف : أنَّه قد بذل في سبيله ما بذل ، وأضاع ما أضاع ، فكأنَّ الذين منحوه إياه لم يفعلوا شيئاً إلا وضعَ توقيعهم على أخْذِ الثَّمن .

ولقد أصبح الرَّجلُ تحت تأثير الكلمةِ العظيمةِ مخبولاً بسحْرها الوهميِّ ، فحسِبَ ذلك إدخالاً له في وظيفةِ كلِّ حاكم ، وإشراكاً له في الحكم متى اقتضتْه مجاري أمورِه ، وأحوالِه ، أو حاجاتُ أسبابِه ، وأتباعِه ؛ وها هو ذا قد جاء يطلبُ حقَّه ، فإنَّ مثلَه لا يفهم من لقب (باشا) إلا أنَّ الحكومةَ قد سوَّغَتْ سلطتَه الظُّهورَ ، والعملَ ، فمدَّتْ باعَه ، وقوَّتْ أمرَه ، ونوَّهتْ باسمه لمصالحها ، وعمَّالها ؛ فهو عند نفسه قد الْتَحَم منذ اليوم بالنَّسب الحكوميِّ ، وفي كلمةٍ واحدةٍ ، هو قد وُلِدَ من بطن الحكومة .

ألا ترى أنَّ الشعبَ لو استردَّ سلطتَه الكاملةَ ، وأنَّ النَّاسَ لو أيقنوا : أنَّ الألقابَ ألفاظٌ فارغةٌ من الأمرِ ، والنَّهي ، والوسيلةِ ، والشَّفاعةِ ؛ لما بقي من يَعبأ بها ، ولكان حاملُها هو أوَّلَ مَنْ يسخر منها ؟

فهي إذاً شَعْبَذَةٌ[١] من الحكومة ، وتضليلٌ في مثل هذا الرَّجل الأميِّ ، وهي ضربٌ من التَّهويل ، والمبالغة في سواه من الكبراء ، والعظماء ، كأنَّ الوزيرَ الذي يلقَّب بالباشا ، يجعلُ فيه لقبُه وزيرين ، وكأنَّ مثلَ هذا الأميِّ المغفَّل ، يجعلُ فيه لقبُه شخصاً آخر غيرَ الأميِّ المغفَّل .

أنا قلَّما رأيتُ رجلاً يحتاج إلى ألقابٍ يتعظَّم بها إلا وهو لا يستحقُّها ؛ وقلَّما رأيتُ رجلاً يستحقُّها إلا وهو لا يحتاجُ إليها ؛ فأين يكونُ موضعُ هذه الرُّتبِ والألقاب ؟

* * *

(١) الشَّعبذة ، والشعوذة بمعنى واحد . (ع) .